مدرسة تعليم اللغة العربية في القرن الرابع الهجري
مقاربة ديداكتيكية لجوانب من مناهجها وموضوعاتها

أ.د. رشيد حليم
جامعة الطارف

الملخص: يعتقد بعض اللسانيين العرب أنه لم يعهد في تاريخ الدرس اللغوي العربي القديم وجود مدرسة تعليمية تهتم بالعربية وموضوعاتها، وقد يكون من باب المجاوزة التاريخية والفكرية، القول بتنبه فقهاء العربية إلى تشكيل رؤية علمية ومنهجية تسعى إلى تعليم العربية ومعارفها إلى النشء العربي والمستعرب. غير إنّ الناظر في ما أنتجه علماء العربية في القرن الرابع الهجري خاصة يجد جذور التأسيس لمدرسة تعليمية عربية تجلت ملامحها في ما نبّه عليه ابن خلدون وما ذكره إبراهيم أنيس في توصيفه لمدرسة أبي علي الفارسي التعليمية التي خرّجت علماء كبار ومعلمين عظام أشهرهم ابن جني والربعي والجرجاني، وامتد قبسها إلى المتأخرين كالعكبري (ت616هـ) وابن الحاجب (ت646هـ) وابن عصفور (ت665هـ) وابن خلدون وغيرهم من علماء العربية ممن كان على محيط فكره من الواردين ومن جليل كتبه من اللاقطين وجميعهم ينهل من صاف معينه ويستقي من عذب مورده.

والحق، إنّ هذه المدرسة التعليمية التي أقامها الفارسي إنما خطط هيكلها وسطر مضامينها في كثير من مؤلفاته اللغوية أشهرها الإيضاح، وتبعه تلميذه ابن

جني في ما ألف من مختصر الكتب التعليمية أشهرها: التصريف الملوكي وعلل التثنية.

وتتبني قواعد هذه المدرسة التعليمية على مبادئ تشبه ما نهجه البيداغوجيون في ضبط برنامجها وطرائق التحصيل فيها، بيد أنها لم تخرج عن وضع الكيفيات لإتقان اللسان العربي والتمكين من اكتساب الملكة اللسانية السليمة.

وفي هذا المبتغى، تعرّف مداخلتنا برجال هذه المدرسة التعليمية ونتاجها العلمي وتتبع جوانب من أغراضها التعليمية، وتبرز أدواتها المنهجية، وأهدافها المعرفية وفق مقاربة لسانية جادة.

مقدمة: لقد تغذى درس اللغة العربية عند العرب القدامى من حاضر الثقافة الأصيلة للمجتمع العربي الإسلامي، كما اكتسب موضوعاته من أحنائها، كما استمد أساليب النظر من خارجها، وذلك بما غنمه من بحوث أخرى جذبها التواصل العلمي بين العقل العربي والفكر الأجنبي الوافد.

وساهم هذا التمازج المعرفي في بلورة مسارات منهجية تملكها الأوائل من العلماء، فباشروا الفعل التعليمي بادئ الأمر في النص القرآني باعتباره المركز المحوري الذي تلتف حوله جميع البحوث والدراسات. وهذا ليس جديدا، فقد كانت نشأة البحث اللغوي عند كثير من الشعوب مرتبطة بالنص الديني، إذ اتجهت الدراسات اللغوية عند الهنود والسريان إلى معالجة موضوعاته، وقد سبقت الدرس العربي بعهود[1] مادة ومنهجا. إنّ المنطلقات الأولى للدرس العربي قد انحازت إلى تتبع الخطاب القرآني في سبيل المحافظة على سلامة أدائه بعيدا عن غلواء اللحن ثم لحق ذلك جهود أخرى عنيت بأغراض أخرى، فتوسعت المجالات وشملت موضوعات البيان والأسلوب، إلى جانب الميادين الأصلية الخاصة باللفظ شكلا

وإعرابا وبلاغة ونقدا، وهو مجال من مجالات النحو العربي، إذ أصبح يعني جل تلك الأغراض وأصبح مصطلح النحاة يطلق على العاملين في هذه الحقول اللغوية.

بلغت علوم العربية النضج إلى حد الاحتراق وبلغ الاعتناء النحو درجة التفحم بسبب الرعاية المتجاوزة لما ألف، ولما شرح41، وفيما وضع من تلخيصات، مما أدخل على النفوس الملل وعلى المتلقين الكدر، ولم يجد المتعلم العربي بدا في منتصف القرن الرابع الهجري في استيعاب الركام الهائل للمادة النحوية، فجاء العزوف تعبيرا مفضلا عن مسايرة تلك الحركة العلمية المشهودة مما دفع ببعض الحذاق من أكابر العربية إلى النهوض لتصحيح مسار نشاطات المد التأليفي للمادة النحوية.

بلغت تلك الصحوة الألباب المتبصرة، فاندفع أفذاذ العربية يلملمون ا لأبواب النحوية في مختصرات مفيدة وجادة تصلح للنشء تتناول العربية في يسر، فألف ابن السراج (ت316هـ) كتابه الوجيز في النحو، وسارع على منواله الزجاجي (ت337هـ) فكتب مؤلفه الجمل، ولم يتخلف أبو علي في متابعة جهد أساتذته وتوفيتها، فخلف لنا دررا استحسنها الخالفون من العلماء، وأشاروا إلى أهمية ما عمل الفارسي الذي راعى الواقع العلمي والتعليمي للمتلقين وتلمسه أيسر السبل لإعادة صياغة المفاهيم المعرفية واحتذاء أنجع الطرق لتبليغها، وقد سطر نهجة سديدة لمن بعده من النحويين، فضارعه في العمل ابن مالك في تسهيله وابن هشام في قطر الندى وبل الصدى.

لقد أشاد ابن خلدون (ت858هـ) بجهدي الزجاجي والفارسي قائلا: "ثم وضع أبو علي وأبو القاسم الزجاجي كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه"[2]. ولا شك في أن ابن خلدون يعني كتاب الإيضاح لأبي علي[3] وكتاب الجمل للزجاجي وفيهما ما قصد

ابن خلدون وما قصدناه:

*- هما كتابان تعليميان

*- يغطيان المادة اللغوية بأسهل الوسائط

1- **قراءة في كتب العربية التعليمية:** من المصطلحات العلمية المعروفة في الدرس اللغوي العربي مصطلح العربية، ومصطلح النحو، ويعرف استعمال مصطلح العربية للدلالة على معنى النحو، فهما يتناوبان في كثير من كتب العربية وعلومها[4]. ألف فقهاء العربية القدامى بعد الخليل وسيبويه والمبرد مؤلفات تعليمية كانوا على وعي تام بضرورة صناعة مختصرات تتمتع بموضوعات محددة وتصاغ بأساليب واضحة، تناسب إلى حدّ كبير فئات المتعلمين من العرب والمستعربين على اختلاف أعمارهم ومستواهم المعرفي. هذه المختصرات تظهر أهميتها في الجمع بين الموضوعات الأساسية في اللغة والنحو ضمن صفحات معدودة. إنّ التأليف في المجال التعليمي الخاص بالعربية وقواعدها لم يكن من عمل فئة متخصصة في النحو، بل كان من اجتهادات علماء متميزين في اللغة العربية بجميع فروعها، مع تصنيف النحاة مع طبقة اللغويين، غير ما ذكر السيوطي في تفريق المهام العلمية بين اللغوي والنحوي. وإذا ورّقنا للكتب المصنفة في المجال التعليمي للعربية، فالقول إن المكتبة العربية زاخرة بهذه الكتب منها ما خرج مطبوعا ومنها ما زال مخطوطا، ينتظر عملا يبعثه إلى البيئة العلمية كذلك هناك كتب تعليمية نالت من الذيوع والشهرة ما لم ينلها غيرها وحظوظها كحظوظ الناس في الزمان يصيبها ما يصيبهم من طمس و تهميش.

ومن الذين كان لهم باع في التأليف التعليمي، نذكر علماء القرن الرابع الهجري ابن فارس وابن جني والرماني، وغيرهم وقد أشار إليهم الأستاذ محمد ساري في أطروحته الموسومة ب: "التيسير النحوي قديما وحديثا"، وغفل ما ذكره

الزبيدي حين أشار إلى سبق ابن درستويه وابن السراج في وضع مؤلفين تعليميين يصلحان لتربية النشء وتمكينه من العربية. وتابع هذا الجهد علماء آخرون في المغرب والأندلس نذكر ابن هشام وكتابه قطر الندى وبل الصدى وابن مالك مؤلفه العظيم شرح التسهيل، وابن مضاء في الردّ على النحاة.

ونظرا للكم الكبير في هذا المجال، انتخبنا كتابين يصلحان أن يكونا مذكرتين تعليمتين، وقد لحب بهما القدماء والمحدثون، فصلا عما نالا من شهرة في الأقطار وذيوع في الأمصار، وما كسبا من شروح وما لقيا من قبول عند المتعلمين.

2- **من الكتب اللغوية التعليمية:**

أ- **الإيضاح في علل النحو للزجاجي:** لقد شاء للدرس اللغوي العربي أن يتأسس على قواعد النظر العلمي، ويقوم على أسس منهجية، وهو الاتجاه العلمي الذي أدركته جميع المعارف الكونية،وفي اختيارنا لكتاب الزجاجي المعنون أعلاه يتضح المبتغى، ويتجل المقصد:

*- نعده أول محاولة لاستيعاب أصل منهجي في درس العربية وهو التعليل، فلم يسبقه احد في هذا التأليف

*- يعد عمل تعليمي جديد، قال شوقي ضيف-وهو احد المهتمين بتيسير النحو-: وكنا نظن ظنا أن ابن جني أول من افرد للعلل مؤلفات خاصة بها على نحو ما هو معروف في كتابه الخصائص، حتى عثر السيد مازن المبارك على هذا الكتاب للزجاجي وقد سماه الإيضاح في علل النحو[5].

- الكتاب مخصص لتعلم العربية، وقد صاغه بناء على أسس التفكير عند مدرسة البصرة والكوفة، وقد نبه على أن ما ألف كان صعب التناول مستغلق الفهم قال: فعبرت عنها بألفاظ قريبة من فهم الناظرين في هذا الكتاب، فهذبتها، وسهلت مراتبها، والوقوف عليها[6].

– مؤلف مختصر، يقع في ثلاثة وعشرين بابا، يضم تعريفات تفصيلية لمفاهيم النحو وتقسيمات الكلام وأحكام الإعراب وعلل النحو، وأهما العلل التعليمية وهي المعول عليها في تعليم العربية لأنها فطرية وموافقة لطبائع العربية ولا تحتاج إلى تعليل أو جدال[7].

ب– الإيضاح العضدي للفارسي: هو كتاب صغير الحجم لا يتجاوز مئتي ورقة خصصه الفارسي لبسط أحكام النحو استقراء من كلام العرب، ورتبه على شكل قواعد نحوية ميسرة سهلة الفهم قريبة المأخذ، سريعة المذاكرة ونسجه الفارسي خصيصا لأسرة عضد الدولة وأبنائها. والكتاب على طلاقة اسمه هو التبيين والتسهيل، وهذا الكتاب على إجازته واختصاره نال إعجاب العلماء، فهو كتاب تعليمي، ولكن حظه في الانتشار كحظوظ الناس يصيبه ما يصيبهم من ذيوع وخمول. وهذا الكتاب يوفي على كبار الكتب التي من جنسه في حسن الصياغة ووضوح العبارة حتى كني الفارسي بكتاب الإيضاح دون غيره[8].

ولعل تلميذه الجرجاني قد استوعب مؤثرات ذاك الزمان في سبب تأليف المختصرات، فأحالنا على عامل مشترك في علة كتابته للدلائل، وعلة كتابة شيخه للإيضاح، إذ عرف داء الأفراد في زهدهم تعلم النحو[9].

3– **المقاربة الديداكتيكية بين الإيضاحيين والدرس التعليمي للعربية:** والذي يوفق للاطلاع في الكتابين يستنتج طرحا علميا مفيداــ يتمثل في معرفة العالمين الزجاجي والفارسي الغرض اللغوي الذي هما بصدد التأليف فيه وهو ما تعنيه اللسانيات بالتركيب (Syntaxe)، على أن كتاب الزجاجي إضافة إلى ما ورد فيه من تعريفات تخص المسائل الإفرادية في النحو، فقد تعرض إلى موضوع ثان يتصل بمنهج البحث والدراسة وهو الكشف عن مبررات وجود العلامات الإعرابية

في تعليق الكلم، وهذه المسائل اللسانية التي اعتبرها بعض الوصفيين العرب من القضايا المعيارية[10].

غير إن منطلقات المدرسة التوليدية التحويلية ساهمت في الكشف عن جدية التأسيس التبريري لمواضع الكلم في الجملة.

أ- **المقاربة من حيث المادة اللغوية التعليمية:** يعد الكتابان من أوائل الكتب التي التعليمية المتخصصة في دراسة العربية وقواعدها، وقد صيغت معظم الأبواب فيها على طريقة مشابهة بدءا بالتفصيل في تقسيم الكلم ثم شرح المسائل النحوية. وإذا قاربنا ما حمل الكتابان في قضايا اللغة والنحو وما كشفت عنه الدراسات اللسانية التطبيقية في مجال التعليمية، نشير إلى:

- **مراعاة قدرات المتعلم:** لا شك في أن مباحث تعليمية اللغة تقوم على محاور ثلاثة، وهي المتعلم والمعلم والمادة التعليمية، وإذا نظرت في الكتابين المذكورين عرفت أنهما مخصصان للنشء وليس للكبار، خاصة إيضاح أبي علي فقد ألفه لأبناء أسرة عضد الدولة. إنّ تخصيص المؤلفين لفئة عمرية محددة يتوافق علميا بما جاءت به مفاهيم اللسانيات التعليمية في التركيز على قدرات المتعلم ومراعاة المستوى الاكتسابي للمتلقي.

*- تضمن الكتابان مفاهيم أولية تعني بالتعريفات والحدود للأغراض النحوية الإفرادية ومسائل متشابهة في تنظيم أبواب النحو، المرفوعات ثم المنصوبات ثم المجرورات على طريقة السلف في تسهيل دراسة النحو للمبتدئين انطلاقا من معرفة نمطية في تقسيم الكلام وهو تقسيم لم يخرج فيه ابن فارس والفارسي عن خطة الإمام.

*- تتجلى المجانسة بين تلقي المتعلمين لمضامين هذين الكتابين في أنهما معدان للتدريس في حلقات المساجد، وقد درس الإيضاح في باحة قصر عضد الدولة، وخصص لأطفال الأسرة المالكة.

*- إنّ عرض المادة اللغوية في هذين الكتابين لم يكن جافا تجريديا، وإنما أكثر ما عني فيه الاستعانة بالأمثلة والشواهد من واقع البيئة المكانية والزمانية ولعل حملهما لتسمية مشابهة "الإيضاح" ينبئ عن الاستعانة بالياته، منها التمثيل والتحليل والوصف وغيرها من الأدوات التي حث عليها الدرس التعليمي المعاصر.

2- **اعتماد الطريقة الوصفية:** حين تبصر في طريقة بناء مضمون الكتابين تتجلى لك الطريقة الوصفية في صياغة المادة العلمية للمؤلفين، فكان الارتكاز على الأشكال واضحا، وهذا ما سطره النظرية البنوية في تعلم اللغة وحفظ متنها، ولعل التعويل على التقريرات الوصفية هو المنحى الذي سلك في الكتابين. ففي تحليله للعلة القياسية يمثل الزجاجي بتعدي الفعل والنواسخ كان يقال لمن قال نثبت زيدا بأنّ في قوله: إنَّ زيدا قائمٌ، ولم وجب أن تنصب إن الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقول: لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحملت عليه فأعملت أعماله لما صارعته فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظا والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظا، فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله نحو ضرا أخاك محمد وما أشبه ذلك[11]. ومن المسالك الوصفية التي سار عليها الفارسي في بناء المادة اللغوية وأقرته النظرية اللسانية الحديثة: قاعدة البنية السالبة.

هذه قاعدة لغوية أصولية تهتم بظاهر اللفظ وتعني ببنيته الشكلية، حيث تحلل المبنى إذا حدث فيه زيادة صرفية قبلية Prefixe، من نحو إضافة وحدة صرفية Lexeme، أو تضعيف في الوحدة الفونيمية الوسطية، فينشأ عنها تحول في صيغة البنية يتبعه تحول دلالي من المعنى الوضعي الأصلي إلى المعنى السلبي

(المخالف). هذا المفهوم اللغوي القديم في بنية الكلم، لم تخرج المدرسة الوظيفية عن مفهومه، فعنيت بتحليل الوحدات الفونولوجية التي تبرز المغايرة المعنوية ويصطلح على تسميته بـــ: "الوظيفة التميزية" ومدلولها؛ لا يؤدي الفونيم تلك الوظيفة إلا إذا كان مغايرا لفونيم آخر[12] ويطلق عليه Antonyme[13]. ذاك المبدأ "البنوي" المرسخ في تراث الفارسي ذلل لنا ابن جني غامضه، وأحالنا على ابتكار لم ينسبه إلا لأستاذه[14] وبسط القول في شرحه والتمثيل له، من ذلك قوله: الأصل في ما وضع من كلام العرب الإثبات وإذا عمدوا إلى النفي استعملوا أدوات دالة عليه، ثم بين أن العرب نزعت إلى التخفيف، فأسقطت الوسائل اللغوية المؤدية للنفي بزيادة وحدات فونولوجية في شكل الكلم، ومثاله:

- زيادة الهمزة: شكوته وأشكيته أزلت شكواه، ومنه باللغة الفرنسية charger-décharger
أي ملأه وأفرغه
- تضعيف الوسط: نحو مرض ومرضته (بتضعيف الراء)، أي داويته من مرضه[15]

ـــ **خاتمة:** لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نتتبع ميدانا يتصل بغرض مهم نادى به الحقل التعليمي، أولهما النظر في إرث السابقين مما خلفوه من نظرات علمية صائبة وقد ركزنا على جهود الزجاجي والفارسي، باعتبارهما من المنظرين الأوائل للدرس النحوي العربي، وحاولنا اكتشاف جديد فكرهما في ميدان لم تتبلور قواعده بعد، فتوصلنا إلى:

- معرفة ما ترك الزجاجي والفارسي من مؤلفات متخصصة تصلح أن تكون أرضية لبناء نظرة في تعليم قوا عد للعربية.
- الاطلاع على جانب من منهجه في الدراسة النحوية
- ذكر بعض النماذج التيسيرية للتمثيل للتمكين الدارسين التعمق في غيرها

الأمر الثاني: مقاربة تلك الاستنتاجات بما جد من فكر لساني، وقد عمدنا التوصل مع المنهج البنوي، وناظرنا به ما حللنا من أفكار.

الهوامش:

1- برجشتراسر، التطور النحوي للعربية، علق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ط4 القاهرة 2003.

2- المقدمة، تح، درويش جويدي، المكتبة العصرية، ص 502.

3- م ن، ص ن.

4- عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، ص 35.

5- الزجاجي، الإيضاح، تح، مازن المبارك، دار النفائس، المقدمة.

6- م ن، ص 78.

7- م ن، ص 48.

8- ابن الأثير، الكامل، المطبعة الأميرية، ج 9، ص 19.

9- دلائل الإعجاز، طبعة م-و-ف-م الجزائر، ص 43.

10- تمام حسان، مناهج في البحث واللغة، عالم الكتب، ص 43.

11- الزجاجي، الإيضاح، ص 64.

12- مشال زكريا الألسنية، (النظرية الألسنية)، المؤسسة الجامعية، ص 237

13- An tonyme, un mot qui a un sens oppose a celui d un autre.

14- الخصائص، تح، علي النجار، دار الكتب، ج3، ص 75.

15- م ن، ج 3، ص 76.